**2/ فلسفة الأخلاق في الفكر المسيحي**

جاءت الديانة المسيحية لتؤسس منظومة أخلاقية تستمد مفاهيمها الأساسية من العقيدة الدينية التي تبشر بالمسيح المخلص الداعي إلى السلام والأخوة بين البشر، ولم يكن ظهور المسيحية أمرا سهلا فقد وجد المسيح مواجهة كبيرة من طرف (اليهود) الذين تآمروا عليه فألبوا عليه الرومان وطعنوا في نسبه وشخصه. وفي خضم هذه الولادة الصعبة للديانة المسيحية، التي حملها أتباع المسيح تعرض النص الديني للعديد من التعديل والتشويه، وانتهى الأمر إلى اعتبار الكتاب المقدس (الإنجيل) الوثيقة الرسمية للكنائس المسيحية التي اختلفت فيما بينها في العديد من المضامين، من حيث الشكل والمحتوى.

ونظرا لما أصاب المسيحية من انقسام وتفكك ظهر العديد من المصلحين عبر التاريخ لجمع شمل أتباع هذه الديانة وذلك ما قام به القديس أوغسطين ثم توماس الإكويني وغيرهما من المتأخرين. فماهي طبيعة المفاهيم الأخلاقية التي بسطها هؤلاء المتصدرين للفكر الأخلاقي المسيحي؟

**القيم الأخلاقية من منظور ديني**

إن المجتمع الديني يرى قيمه الأخلاقية منطلقة من المصادر الدينية التي توارثها عبر مراجعه الأساسية، ومرجعياته الدينية سواء الممتدة عبر التاريخ أو المعاصرة له، فيشكل من تلك المصادر منظومة قيميّة متعددة الاتجاهات يحتكم إليها ويرى نفسه بمقدار التزامه بها، ومنظومة القيم كما يراها عبد اللطيف خليفة هي "مجموعة القيم المترابطة التي تنظم سلوك الفرد وتصرفاته، ويتم ذلك غالبا من دون وعي الفرد، وبتعبير آخر هي عبارة عن الترتيب الهرمي لمجموعة القيم التي يتبناها فرد أو أفراد المجتمع، ويحم سلوكه أو سلوكهم دون وعي"1

فأخلاق الإنسان في نظر المجتمع الديني ببساطة إما أن تكون صالحة أو شريرة، وعلى أساس صلاحها من عدم يتحصّل نتيجة لها الثواب أو يكون العقاب، وربطت الديانات بين خوف الله والخلق الكريم ليكون طريق الجنة من خلالهما، وجاء الأنبياء عموما ليحققوا مكارم الأخلاق، وبذلك فلقد توثقت العلاقة بين القيمة الأخلاقية والمعتقد الديني لكون المعتقدات الدينية في الأساس توجيهية مباشرة ولكون المعتقدات الدينية متمركزة في توضيح ما يتعلق بما هو حسن أو سيء وما هو حقيقي



1/ موقع على الإنترنت http://www.diwanalarab.com/spip.php?article25473

أو مزيف، وما هو مرغوب أو غير مرغوب، وذلك لأن الإنسان الذي يحتكم في قناعاته لما هو حسن وقبيح لمصادره الدينية يجعل من التوجيهات التي يرجع إليها، وتمثل قناعاته منظومة قيميّة يراها كاملة وبالتالي يرى نفسه متجها إلى الكمال بها، و من ثم يحكم على مجتمعه من خلالها، فيقيم الآخرين من تلك المنطلقات، ويحاكم مجتمعه على أساسها، من ذلك تكمن أهمية دراسة القيم العامة بشكل تفصيلي لكل قيمة وبإطار شمولي يجمع كل تلك القيم بإطار مشترك لتكتمل الصورة في ذهن المتبني لمنظومة القيم، وبالتالي يصبح حكمه على نفسه بداية صائبا، وعلى المحيطين به ومن ثم على مجتمعه الصغير والكبير في هذا العالم، أي على الآخر الذي هو غيره، بشكل صائب أيضا.

وبهذا فقد أظهرت الديانة المسيحية عمق الارتباط بين معتقد الإنسان ومنظومة القيم المتبناة بناء عليها، ويظهر ذلك كنتيجة في السلوك العملي، فالإنسان الذي تبنى قيمه الدينية وتمثلها بما بان على سلوكه وأعماله لا يمكن أن يكون إلا إنسانا خيرا معطاء كما أراده الله، يقول نبي الله عيسى عليه السلام: " هكذا كل شجرة جيّدة تصنع أثمارا جيده وأما الشجرة الرَدِيَّة فتصنع أثمارا رَدِيَّة لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع أثمارا رَدِيَّة ولا شجرة رَدِيَّة أن تصنع أثمارا جيّدة"1

إن الأخلاق الدينية لم تدع جانبا من جوانب الحياة الإنسانية روحية أو جسمية، عقلية أو عاطفية، فردية أو جماعية إلا رسمت له المنهج الأمثل في السلوك الرفيع، فما فرقه الناس في مجال الأخلاق باسم الدين وباسم الفلسفة وباسم العرف أو المجتمع قد ضمه القانون الأخلاقي الديني في تناسق وتكامل وزاد عليه، وتجب الإشارة هنا على أن القيم الدينية تمتاز عن غيرها من القيم الفلسفية بتقديمها من خلال النموذج، والتطبيق العملي، فالأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه كانوا منتظمين ضمن السلوكيات المحكومة للقيم التي نادوا بها، وبالتالي فأتباع هذه الديانات لم يكونوا يتلقون توجيهات نظرية فقط، بقدر ما كانوا يرونها مطبقة بشكل كامل في أنبيائهم و بصورة كبيرة في صحابة وحواري هؤلاء الأنبياء.

والدارس للقيم الأخلاقية الدينية يجدها ضمن اتجاهين، الأول قيم كبرى عامة، تضم في معناها وتطبيقاتها الكثير من القيم الجزئية.



1/ الكتاب المقدس، إنجيل متى الإصحاح رقم 7/17

**ا/ الأخلاق عند القديس أوغسطين(354-430) م:**

اتسمت أفكار القديس أوغسطين الأخلاقية بكونها امتدادا لحياته الواقعية وثمرة تجاربه الحياتية وهو لا يتردد في الإشارة إلى الدور التربوي لأمه في توجيهه نحو الفضائل وتشجيعه على السير في خطى العفاف ويقول القديس أوغسطين( 13 نوفمبر 354 - 28 أغسطس 430) عن أمه " فإني لازلت أذكر تأثير جوابك علي بلسان أمي اليقظى وهدوئها التام لقاء شرحي الحرفي الخاطئ وسرعتها في إدراك ما عييت عنه ... فأمي التي ولدتني بالجسد فقد كانت تتجول في ضواحي بابل المذكورة رغم نجاتها من وسطها وتدعوني الى حياة أعف و أطهر"1 وهذا التأثير المبكر لامرأة عاشت ظروفا صعبة كان له تأثير بالغ على توجه أوغسطين الديني مما جعل أفكاره الأخلاقية تتسم بخلفية مسيحية واضحة.

إلا أن اتباعه لتعاليم الدين المسيحي كان قويا وباختيار إرادي وذلك لما عرفه من انغماس كبير في الملذات والشهوات، مما دفعه إلى المرور بأزمة نفسية حادة يعترف بها في (اعترافاته الشهيرة) يقول: " سمعت صوتا من المنزل المجاور...يصيح ويكرر....تناولها واقرأها ...توقف سيل الدموع مني ونهضت لأني فهمت أن هذا لا يمكن إلا أن يكون سوى أمر من الله لأفتح وأقرأ الكتاب المقدس وأقرأ أول فقرة تصادفني...لا بالبطر والسكر لا بالمضاجع والعهر، لا بالخصام والحسد بل ألبسوا الرب يسوع المسيح ولا تصنعوا تدابير الجسد لأجل الشهوات.."2  وكانت هذه التجربة بمثابة التحول المفصلي في أفكاره حول أهمية العقيدة المسيحية في إصلاح الحياة الأخلاقية لأتباعها، مما يدل على أن الفكر المسيحي يتمحور بشكل رئيسي حول القضية الأخلاقية من خلال التبشير بتعاليم دينية محددة

وتشكل الخطيئة الفكرة الجوهرية في أخلاق القديس أوغسطين وهي ذات مصدر يتجاوز الأنسان لأن مصدرها الأول هو (الشيطان) الذي اقترف المعصية في الأكل من الشجرة المحرمة، مما يجعل من الأخلاق بالنسبة للإنسان إنما تتمثل محاربة الشطان في النفس البشرية من خلال التمسك بالتعاليم المسيحية.



1/ القديس أوغسطين: الاعترافات، تر: الخور أسقف يوحنا الحلو، دار المشرق، بيروت، الطبعة 3 ص 55.

2 المصدر نفسه، ص: 331-333

فقد تحدث الكتاب المقدس عن الخطيئة على أنها تبعد الإنسان عن طريق الله وفي هذا يقول بولس إذا فالعالم كله حسب ما جاء في العهد الجديد وقع تحت سطوة الخطيئة وأنه الجميع اخطأوا وأعوزهم مجد الله لا يوجد إنسان حي لم يخطئ، ويعرف العهد الجديد الخطيئة بأنها التعدي على حدود الله ويؤكد على أن الجميع أخطأوا بإرادتهم، جاء في رسالة يوحنا الأولى كل من يفعل الخطيئة يفعل التعدي أيضا. والخطيئة هي التعدي. ويقول بولس "إذ نعلم أن الإنسان لا يتبرر بأعمال الناموس لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما". فبولس في هذا النص يرى أن الإنسان مهما كان خاطئا ثم تاب عن خطيئته وآمن بالمسيح فإنه يتبرر في الحلال "1 يعني أنه إذا آمن بأن المسيح مات من أجله على الصليب قبلت توبته.

**الفضائل عند القديس أوغسطين**

ينطلق القديس أوغسطين في طرحه لموضوع الفضيلة من فكرة أساسية مفادها ان الفضائل يجب ان تكون حربا على الرذائل؛ لأن الفضائل التي يقصدها القديس أوغسطين تكتسب بالتربية وليست فطرية فينا؛ حيث يقول: "الفضيلة ذاتها لا تعد بين خيارات الطبيعة الأولى؛ لأن التربية تدخلها لاحقا بعدها، على ان الفضيلة التي تطالب بالمركز الأول بين خيارات الإنسان ما هو عملها هاهنا؟ وإلا كانت حربا على الرذائل؛ لا على الرذائل الخارجية بل الداخلية، ليست حربا على الرذائل الغريبة بل على رذائلنا الخاصة والشخصية". وقد استمد القديس أوغسطين هذه النظرة للفضيلة من تجربته في الحياة، اذ رأى انه لو كانت الفضائل طبيعية أو فطرية في البشر لم عاشا اثنان وثلاثين سنة من عمره غارقا في اوحال الرذيلة، بل لكان فاضلا منذ والدته، وعلى هذا الأساس استنتج ان الناس لا يولدون فاضلين وانما يكتسبون الفضيلة.

ويجعل القديس أوغسطين جماع الفضائل عنده في أربعة فضائل أساسية رئيسية يطلق عليها اسم الفضيلة الرباعية يعرفها على انها تنوع في التعبير عن حب الله في قوله: "اما ما يسمى بالفضيلة الرباعية فهو تنوع في التعبير عن الحب ذاته بقدر ما يدركه عقلي2". وتتمثل هذه الفضائل الأربعة في:



1/ القديس أوغسطين: مدينة الله، ترجمة الأسقف يوحنا الحلو دار الشرق بيروت ج3 ص: 335.

2/ المصدر نفسه، ص: 13.

**فضيلة البر:**

هي الفضيلة التي تعنى بالحب الذي يجعل للإنسان سيدا واحدا هو الله فيكون خادما له بصدق وانقياد كاملين بلا قيود أو شروط. فهو يكسب الانسان قوة وإرادة وحبا جما في ان يسير في خدمة الله طوعا لا كرها، ويعرفه القديس أوغسطين بقوله الرب هو الحب الذي لا يخدم سوى محبوبه، ولذلك فهو يسيطر جيدا على الباقي أي على ما هو خاضع للإنسان ، يقول "والرب بهذا المعنى يكون هو الحب الذي يجعل المرء يثق في خالقه، فيعمل بأوامره بكل طاعة وينتهي عما نهاه عنه بكل رضوخ فلا يخالفه إلى غير ذلك ابدا، ويهب الرب من يحب الله قاعدة للحياة تساعده على ان يخدم الله الذي يحبه خدمة طوعية، لكونه الخير الأسمى والحكمة السامية والسلام الأسمى، وعلى ان يسيطر على ما هو دونه ويحسن الظن بما يجب ان يخضع له"1

**فضيلة القوة:**

تمثل الحب الذي يجعل المرء يتحمل كل العذابات والآلام في سبيل محبوبه، فيخوض الصعاب في سبيل الوصول اليه ثم يخوضها تارة أخرى في سبيل الدفاع عنه يقول القديس أوغسطين: "القوة هي الحب الذي يحتمل كل شيء في سبيل محبوبه.... فهي الحب الذي يحتمل كل شيء وبسهولة في سبيل الله" 2 أي أن القوة الحقيقية عند القديس أوغسطين ، هي أن على الانسان ان يصارع ويكابد كل معاناه ممكنة دون اكتراث للآلام التي تسببها حتى يصل إلى الله، كما ان عليه ان يصبر على ذلك الحال بعد وصوله إلى الله فيتحمل المصاعب والمصائب من جديد في سبيل تحقيق محبته ورضاه وفي سبيل الدفاع عن دينه وعقيدته، وألا يهتم أبدا بالمغريات الدنيوية والشهوات الجسدية والخيور الزمنية، بل عليه ان يزداد قوة كلما خسرها ونجده يقول في هذا الصدد فالقوة هي الحب الذي يجب ان يكون مضطرما لله. فيكبح جماح رغباتنا حتى إذا خسرها كان قويا ثم يعطينا القديس أوغسطين مثالا عن الصبر بقصة سيدنا أيوب لما ابتلاه ربه؛ فخسر ماله وأولاده وصحته ليصبح فقيرا بعدما كان غنيا، وسقيما بعدما كان صحيحا، الا انه صبر ولم يكترث إلى ما أصابه، بل ازداد قوة ومحبة إلى الله في قلبه، فلما خسر أيوب ماله كله وأصبح معدما، ظل متحدا بالله في قلبه اتحادا لا يتزعزع. واظهر عدم اكتراث برزقه واعتبر الله أسمى كنز عنده.



1/ القديس أوغسطين: خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، ترجمة يوحنا الخوري دار المشرق بيروت، ص: 12

2/ القديس أوغسطين: المصدر نفسه ص:1

فلو ان كل انسان في نظر القديس أوغسطين قد تحلى بمثل هذه الفضيلة لما كان بحاجة إلى أنبياء ورسل أو كتب مقدسة لترشده وتوصله إلى السعادة فلو تحلى أبناء عصرنا بجرأة مماثلة لما كنا بحاجة إلى قدرة الكتب المقدسة كي نبعد عنا تلك الخيارات بلوغا إلى الكمال، وبالرغم من كل الثناء الذي اثناه أوغسطين لهاته الفضيلة إلى انه يحذر من مغبة.

**فضيلة الفطنة:**

هي الفضيلة الرابعة وتتمثل في الحب الذي يساعد المرء على التمييز بين ما يساعدنا على  
البلوغ إلى الله وبين ما يمنع ذلك عنه، أي التمييز بين ما يقربنا من الله وبين ما يبعدنا عنه يقول ":الفطنة هي الحب الذي يميز بين ما يساعد على البلوغ إلى الله وبين ما يمنع عنه ......... الفطنة هي الحب الذي يميز بينما يقرب إلى الله وما يبعد عنه" 1 وتعنى هذه الفضيلة بالحذر الدائم والتسلح بالانتباه مما يبعد المرء عن محبوبه والسعي إلى المجد وإلى ما يوصل اليه في كل حركاته وسكناته فالفطنة ان تتسلح بالانتباه والسهر التام لئلا تقع فريسة، كما نجد القديس أوغسطين يعرف الفطنة في كتابه مدينة الله تعريفا عمليا من حيث استعمالها وعملها فيقول "وتلك الفضيلة المسماة فطنة الا تستعمل وعيها لتمييز الخير من الشر، كيلا تقع في ضلال، في سعيها إلى الخير وهروبا من الشر؟ ومع ذلك فإنها تشهد بأن الشر فينا، أو باننا في الشر وهي نفسها تعلمنا بان القبول بالخطيئة شر، وأن مقاومة الميل إلى الخطيئة خير"2 فالفطنة عند القديس أوغسطين هي أسمى الفضائل من باب التفضيل بين الفضائل الأربع؛ لان المرء إذا فقد الانتباه والحذر فيما يقربه إلى الله وفيما يبعده عنه فلا حاجة له إلى باقي الفضائل الأخرى، لأنه حتما إذا فقدها سوف يقع يوما ما في شراك التعطيل التي تسير به إلى ما يبعده عن الله شيئا فشيئا إلى ان تحط به في جحيم الكفر يقول القديس أوغسطين: "ان اعوزتك الفطنة فلا مجال للفضائل التي سبق الكلام عنها.



1/ القديس أوغسطين: مدينة الله، ج ،1مصدر سابق، ص: .339

2/ القديس أوغسطين: خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، مصدر سابق، ص: .129-12

**فضيلة الاعتدال:**

الاعتدال هو الفضيلة التي "تكبح جماح الرغبات الجسدية خوفا من ان تنتزع من العقل  
الضعيف تنازلات مؤسفة" ويكون بذلك الاعتدال هو الفضيلة التي تعنى بكبح الشهوات والميولات الجسدية، ولما كانت الفضيلة بمثابة الحرب ضد الرذيلة فان الصراع بينهما يمثله صراع الجسد والروح فالجسد يطمح ويريد مالا تريده الروح، والروح تريد مالا يريده الجسد، يقول القديس أوغسطين "1 والا يجوز الاعتقاد بان لا عيب فينا حين يقول الرسول الجسد يشتهي ما هو ضد الروح طالما ان الرسول نفسه يكشف لنا عن مقاومة تقوم بها فضيلة مضادة فيقول: "الروح يشتهي ما هو ضد الجسد) مضيفا كلاهما في حرب ولستم تعلمون ما تريدون"2؛ فهذه الفضيلة المضادة كما يسميها القديس أوغسطين هي فضيلة الاعتدال. كما نجد القديس أوغسطين يعرف الاعتدال تعريفا آخر قائم على مبدئه الأساسي (الحب) فالاعتدال هو الحب الذي يقدم ذاته إلى محبوبه كاملا والمحبوب بحق عند القديس أوغسطين هو الله، فيصبح الاعتدال حينها هو حب الله الكامل من دون عيب كما ان الاعتدال هو بمثابة الحب الرادع للإنسان فيردعه عن الشهوات والملذات، فالإنسان عند أوغسطين نوعان انسان ارضي آثم قد انغمس في اشباع رغبات الجسد، وانسان سماوي قد أحب الله وعرف الحقيقة؛ فالأول قدم والثاني جديد قد اقام حياته على الاعتدال وبالاعتدال، يقول أوغسطين: "يقوم الاعتدال في ان ينزع المرء الانسان العتيق ويلبس الجديد في الله، أي ان يرذل مغريات الجسد والمجد البشري، ويصوب محبته كاملة إلى ما هو الاهي غير منظور ... أحب الله وارذل كل ما هو محسوس واستخدمه فقط لقضاء حاجات الحياة الدنيا"3 .



1/ القديس أوغسطين: مدينة الله، ج ،3مصدر سابق، ص: .381  
2/ المصدر نفسه، ص: .13  
3/ القديس أوغسطين: خواطر فيلسوف في الحياة الروحية، مصدر سابق، ص: .122